# الخطاب الجمالي في النقد العربي المعاصر
## من الوظيفة النقدية إلى الوظيفة الثقافية
### دراسة تحليلية تأصيلية

*The Cultural Discourse in the Contemporary Arabic Criticism*
*From the critical function to the cultural function*
*An Analytical and Genetical Study*

جمال سايحي / طالب دكتوراه
أ.د. الطيب بودربالة

قسم اللغة والأدب العربي-جامعة الحاج لخضر باتنة(الجزائر)
مخبر المتخيل الشفوي وحضارات المشافهة والكتابة والصورة،
*Djamalsaihi111@gmail.com*

تاريخ الإيداع: 2019/10/06 تاريخ القبول: 2019/12/09

**ملخص باللغة العربية:**

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على المحاور المفصلية للنقد العربي المعاصر، باعتباره مجالا ثقافيا ومعرفيا عرف تحولات كبيرة خاصة في الفترة التي أطلق عليها النقاد ما بعد الحداثة، ذلك أن هذه الفترة تميزت بظهور وسائل التواصل الحديثة التي نقلت الاهتمام النقدي من الأوساط النخبوية إلى الثقافة الشعبية الجماهيرية، ومن ثم فإن الدراسة سترتكز بصورة واضحة على تتبع هذه المحاور المفصلية التي تشكل نقاط التحول في الدرس النقدي والثقافي في العالم العربي المعاصر، كما تهدف الدراسة أيضا إلى إبراز جماليات الخطاب في النقد العربي الذي رافق التحولات الفكرية والثقافية مع مطلع القرن الواحد والعشرين، وستتوسل الدراسة بالمنهج الوصفي التحليلي لبلوغ الهدف المسطر لها.

**كلمات مفتاحية:** خطاب ثقافي، نقد عربي، تحولات نقدية، جماليات النص، نقد ثقافي، عولمة.

**ملخص باللغة الإنجليزية:**

**Abstract:**

The present study aims at examining the main aspects of the Arabic contemporary criticism. This cognitive and cultural filed has witnessed important shifts, especially during the “post-modernism” era, when new means of communication appeared to expand the interest in critics from the

elite to the popular culture. The research paper will mainly focus on the description of the main significant shifts in the critical and the cultural course in the contemporary Arab world. The study also seeks to demonstrate the discourse aesthetics in Arabic criticism, which went along with the critical and the cultural shifts at the beginning of the 21st century, through the use the descriptive analytical method to achieve the underlined objective.

**Keywords:** Cultural discourse, Arabic criticism, Cultural Criticism, Critical Shifts, Aesthetics of Text, Globalization.

**تمهيد:**

عرف النقد الأدبي حركة سريعة جعلته يشهد تحولات جذرية هامة، خاصة مع مطلع القرن الواحد والعشرين، واستطاعت الدراسات التي تعنى بمجال الثقافة أن تفرض نفسها بشكل واضح في النقد الأدبي بعامة والعربي بخاصة خلال هذه الفترة، ذلك أن النظرية النقدية المعاصرة قد أولت الدراسات الثقافية أهمية قصوى،ويعود ذلك إلى أسباب متعددة، وعليه يمكن القول: "إن الدراسات الثقافية هي تجمع أطياف مختلفة تشبه في تجمعها ألوان قوس قزح المتنوعة، وهذه الأطياف المختلفة هي ما تضمه النظرية النقدية المعاصرة".[1]

وقد حاولت الدراسات الثقافية أن تفرض وجودها في المجالات الأكاديمية لتنافس النقد الأدبي الذي كان يدرس طيلة قرون عديدة في المؤسسات التربوية والجامعية التي تضم النخب الأكاديمية المتخصصة. ووعيا بهذا التوجه الاستراتيجي الواعد ولع الناقد المشهور،ايستهوب (A.Easthop) بالاهتمام بالثقافة الشعبية، باعتبارها جزءا مهما لا يمكن إغفاله ولا إسقاطه من اهتمامات الناقد الذي يفرغ كل طاقاته في النص الأدبي من أجل تحليله والوقوف على مكنوناته وأسراره.

سعى ايستهوب إلى وضع الحجر الأساس لنقل الدراسات النقدية إلى الدراسات الثقافية، ونقل الاهتمام النقدي من ثقافة النخبة إلى الثقافة الشعبية الجماهيرية، وهو يرى أن هذه الأخيرة ستعمل على تشييد بنائها على حساب البناء النقدي التقليدي الذي يركز أساسا على العناصر الجمالية في النص، وقد نحى منحاه كثير من النقاد الغربيين الذين ساروا على نهجه وتأثروا بدعوته الجديدة، منهم على سبيل التمثيل، "وليامز Williams"، و"تيري إغليتون Terry Eagleton"، ومن النقاد العرب، الناقد السعودي المعروف "عبد الله الغذامي"، الذي قام بنقل الدراسات الثقافية من الجامعات الغربية إلى الساحة العربية، محاولة منه لتحقيق الاستنبات

والتخصيب، وقد طرحها في كتبه واعتبرها نظرية نقدية جديدة يمكن أن تكون بديلا عن النقد الأدبي.

**أولا: الخلفية الفلسفية للخطاب الثقافي في النقد العربي**

عاش النقد العربي فترة طويلة اتسمت بالركود والجمود، ثم حاول رواده محاولات جادة وبطرق شتى لبعثه وإحيائه وتكييفه مع التحولات الجديدة، وقد وجد النقاد العرب أنفسهم مضطرين للنهل من النموذج النقدي الغربي الذي صار مهيمنا في مجالات الكتابة والتجديد والحداثة، ومن ثم فإن حضور المؤثر الغربي في النقد العربي أمر جلي لا يمكن إنكاره أو تجاهله، وفي هذا المستوى من الدراسة يسعى الباحث للكشف عن المنطلقات الإبستيمولوجية والوجه الخفي والواعد لهذه الدراسات الثقافية التي أطلق عليها عبد الله الغذامي النقد الثقافي، والتي سعى إلى توطينها في العالم العربي في ظروف تتسم بالمواجهات الحادة بين مختلف الخطابات النقدية والفكرية والأيديولوجية.

**1/ الحفريات المعرفية للدراسات الثقافية:**

تعود جذور الدراسات الثقافية المعاصرة إلى المناهج النقدية التي رافقت الحداثة وما بعدها كالبنيوية والتفكيكية والنقد النسوي والنقد الترجمي والنقد السيميائي وما إلى ذلك، بالإضافة إلى إسهامات معرفية هامة للدراسات الأثنية والأنثروبولوجية التي يلعب فيها مصطلح الثقافة دورا حاسما، ذلك أن الدراسات الثقافية تبنت "دور مساءلة العلوم المنتمية إلى الحقل الاجتماعي وعلوم الإنسان، واستجوبت ممارسات النقد الأدبي التقليدية وممارسات النظرية الجمالية ".[2]

ويؤكد الناقدان ميجان الرويلي وسعد البازعي أن مصطلح الثقافة عام وعائم بحيث لا يمكن حصره في تعريف جامع ومانع، وتعود جذوره التاريخية في الدراسات المعاصرة إلى ما قبل ظهور الدرس اللساني والمناهج النقدية الحداثية، ولم تتبلور الفكرة بصفة واضحة إلا مع صدور كتاب ريموند وليامز "الثقافة والمجتمع"، سنة 1958.

ولاشك أن كل دراسة تقوم وتظهر في الساحة الثقافية والنقدية إلا ولها خلفية معرفية تنطلق منها، وتؤسس عليها أفكارها وتبني عليها أهدافها، وعلى هذا فإن النقد الثقافي جاء كرد فعل على البنيوية اللسانية، والدراسات السميائية، والنظرية الجمالية (الإستيقية)، التي تعنى بالأدب باعتباره ظاهرة لسانية شكلية من جهة، وظاهرة فنية وجمالية وبوطيقية (شعرية) من جهة أخرى.

ومن ثم فقد استهدف النقد الثقافي تقويض البلاغة والنقد معا، بغية بناء بديل منهجي جديد، يتمثل في المنهج الثقافي الذي يهتم باستكشاف الأنساق الثقافية المضمرة، ودراستها في سياقها الثقافي والتاريخي والاجتماعي والسياسي والمؤسساتي فهما وتفسيرا، وتأثر المنهج الثقافي بالأفكار التي طرحها "جاك دريدا" القائمة على التفكيك والتقويض والتشريح، فقد أحدث جاك دريدا تحولا جذريا في التفكير النقدي، وانبثقت من أفكاره كثير من النظريات المعاصرة، فالنقد الثقافي يختلف عن منهج التفكيك في كونه لا يبحث من أجل إبراز التضاد والمتناقض وتبيان المختلف إضاءة وهدما وتأجيلا، وإنما يبحث من أجل استخراج الأنساق الثقافية عبر النصوص والخطابات، سواء كانت تلك الأنساق الثقافية مهيمنة أم مهمشة، وينطلق النقد الثقافي في ذلك كله من النظريات النقدية المعاصرة التي سبقته، كالماركسية الجديدة، والتاريخانية الجديدة، والمادية الثقافية، والنقد الكولونيالي (الاستعماري)، والنقد النسوي الذي يدافع ثقافيا عن كينونة التأنيث في مواجهة سلطة التذكير.

وإذا كان النقد الثقافي يعود في مرجعيته إلى فلسفة التفكيك، فإن هذه الأخيرة ظهرت بوادرها مع جاك دريدا، حينما ألقى محاضرته بجامعة "جوهن هوبكنز" بالولايات المتحدة الأمريكية في شهر أكتوبر سنة 1966 في ندوة نظمتها الجامعة بعنوان "اللغات النقدية وعلوم الإنسان"، وقد شارك في هذه الندوة العديد من أقطاب النقد العالمي من أمثال: رولان بارت، وتزفيتان تودوروف، ولوسيان غولدمان، وجاك لاكان،... وغيرهم من النقاد العالميين، وبهذه الأفكار النقدية والفلسفية الجديدة استطاعت هذه الندوة أن تؤسس لفترة نقدية تحقق فيها التجاوز للنقد التقليدي والمناهج النقدية التي رافقت البنيوية بشقيها الشكلاني والتكويني، ووضعت فيما بعد ذلك معالم ومنطلقات للدراسات النقدية الثقافية.

وكان الهدف من تأسيس هذا التوجه النقدي الجديد هو: "تأسيس فلسفة نقدية تفكيكية ثائرة على القراءة الأحادية المركزية، ومضطلعة بإبراز تصدعات المقروء وتشققاته التي تؤول إلى مفارقة المعنى المجازي للمعنى الحر الحقيقي في الجملة الواحدة، والمباعدة الدلالية بينهما، بما يفضي إلى انتقاء المعنى الثابت المتماسك للنص المقروء"..[3]

ومن هذه الأفكار الفلسفية والنقدية الجديدة تأثر النقد العربي المعاصر وحاول أن يستفيد من هذه النظريات، وكان في مقدمة النقاد العرب الذين تأثروا بمنهج التفكيك هو

الناقد السعودي "عبد الله الغذامي" الذي جسد المنهج التفكيكي في كتابه الذي نشره سنة 1985 بعنوان "الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر"، ثم تبعه أسماء عربية أخرى أمثال: "عابد خزندار"، "سعد البازعي"، "علي حرب"، "بسام قطوس"،... وغيرهم من الأسماء العربية الأخرى.

هذه الأسماء العربية تأثر أصحابها بمنهج التفكيك –كما أسلفنا- القائم على الشك وعدم إمكان الوصول إلى النتيجة الأحادية الحتمية، وهذه الميزة التي قام عليها التفكيك هي الميزة التي اصطبغت بها الثقافة المعاصرة، ولم يكن باستطاعة المناخ الجديد الذي صنعه الشك الفلسفي قادرا على تحقيق المعرفة اليقينية بعيدا عن جاك دريدا وغيره من أقطاب نظرية التفكيك بعد "هيوم"، و"باركلي"، و"نيتشه"، لكن هذا المناخ كان قريبا في التأثر بشكل مباشر في عدد من فلاسفة النظرية التأويلية (الهيرمينوطيقا) أمثال: "هيدجر"، و"جدامير"، وحاضرا أيضا لدى بعض الفلاسفة الألمان الذين وصل تأثيرهم متأخرا بعد ترجمة أعمالهم إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، أمثال: "هوسرل".

وتعد نظرة "دريدا" قائمة على الفلسفة في أعماقها، والحقيقة أن ثمة تداخل فعلي بين الفلسفة التفكيكية واللغة والأدب، وقد يصل هذا التداخل إلى حد التطابق بين رؤية دريدا التفكيكية ونظرة هيجر الفلسفية حول المعرفة واللغة والأدب.

ومن ثم يمكننا القول: إن النقد الثقافي اتجاه حديث قدم للنقد الأدبي قراءة نقدية جديدة، انطلقت من تراكمات معرفية وخلفيات فلسفية حتى وصلت إلى مرحلة النضج الأدبي والثقافي، ومن ثم فإن النقد الثقافي قدم نقدا للثقافة العربية وللنموذج العربي الذي كان سائدا في الذهنية العربية.

وعلى هذا الأساس، فإن الدراسات الثقافية في الدرس النقدي الغربي المعاصر لم تتأسس إلا في أوائل الستينات من القرن العشرين، حيث عمدت إلى تحويل الثقافة الهامشية إلى لب الدراسات وجوهرها. كما أقامت أسسها على مبدأ المساءلة والمراجعة في كل شيء، "وهكذا فإن قصارى جهد الدرس الثقافي أن يعترف بذاتيته ويبررها بالقول، إنه يضع ذاتيته موضع المساءلة كما يضع موضع التشكيك منظوره وفرضياته الذاتية، وهذه هي سمة النقد الفاحص (Critique) التي يفخر بها الدرس الثقافي".[4]

ولم تكن الدراسات الثقافية بعيدة عن المجال النقدي، لأن العلاقة بين النقد والثقافة علاقة جدلية، وقد قام كل من ريموند وليامز ورولان بارت بترجمة هذه العلاقة القائمة بين الثقافة والنقد في كتابيهما "الثقافة والمجتمع Culture and society" لوليامز و"أساطيرMythologies" لرولان بارت، حيث قام الكتاب الأول بتحليل الثقافة وتبيان مختلف تعالقاتها بالمجتمع، كما عمد الثاني إلى تحليل النصوص للكشف عن مختلف الأساطير الحديثة التي ينتجها المجتمع عبر الثقافة الجماهيرية والأنماط الكتابية الجديدة. وحري بنا في هذا المجال، أن نلاحظ، من باب التأصيل، أن الفلسفة الفرنسية النقدية التي ازدهرت في فرنسا في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، قد أثرت أيما تأثير في الفكر الأمريكي الذي تشبع بها وتمثلها وأدمجها في أنساقه الثقافية. فكانت الدراسات الثقافية في أمريكا ثمرة هذا التلاقح وهذا التخصيب الثري. والأمريكيون أنفسهم يعترفون بفضل كبار المفكرين الفرنسيين في هذا المجال، من أمثال، فوكو وبورديو وألتوسير و بارت ودريدا و ليوتار و ليفي ستراوس. وبعد تبلور الدراسات الثقافية في العالم الأنجلو كسوني رجعت إلى فرنسا وأوروبا في حلة جديدة وهي التي اكتشفها العالم العربي مع الغذامي وغيره من النقاد الجدد.

إن العلاقة القائمة بين الثقافة والنقد جعلت الملامح الجديدة تتجلى في النقد الأدبي المعاصر، فامتزجت ملامح الثقافة بالمنهج النقدي فظهر ما عرف بـ "النقد الثقافي".

وهذه الإرهاصات النقدية دفعت النقد الأدبي من الاهتمام بالقصيدة الشعرية الكلاسيكية إلى الاشتغال بالنثر الفني والمشافهة وفنون القول والأصوات المحظورة في النص، وقد صارت الثقافة بمفهومها الواسع هي المهيمنة على الفكر الإنساني، خاصة وأن الانفتاح الذي شهده العالم المعاصر جعل التفكير النقدي ينحاز شيئا فشيئا إلى مجال الثقافة، ومن ثم ظهرت الدراسات النقدية التي اتخذت من الثقافة منطلقا لمساءلة مختلف الإبداعات والتعبيرات الحضارية.

## 2/ روافد النقد الثقافي:

تجدر الإشارة إلى أن النقد الثقافي يستمد روافده وآلياته من علوم شتى، لأنه علم عابر لمختلف التخصصات،ولأنه يتصل بثقافة الإنسان بمفهومها الواسع، والثقافة مجالاتها واسعة ومتعددة ومتشابكة. يؤكد هذا الأمر "ريشارد وولين RichardWolin" في كتابه "مقولات النقد الثقافي"، إذ يعتبر أن العمل الذي قام به "ليوتار" "François Lyotard"، رائد ما بعد الحداثة في فرنسا، عندما نشر دراسته الموسومة بـ "الخطاب والصورة" كان له الدور الأساس في تحول الدرس النقدي المعاصر في العالم الغربي، ذلك أن ريشارد وولين يرى "أن الدراسة التي كتبها

ليوتار "Lyotard" عام 1971 بعنوان "الخطاب والصورة" وهي التي يسوق فيها الحجة على أهمية الأشكال البصرية –الرسوم والأشكال والصور- في تفجير الهيمنة الطاغية للعقل والفكر التحليلي في الغرب".[5]

وهكذا تمكنت حضارة الصورة من فرض هيمنتها في الكتابة الأدبية والنقدية المعاصرة، ومثلت أيضا الجذور الأولى والروافد الأساسية التي بنى عليها النقاد نظريتهم في النقد الثقافي بالمنظورين الغربي والعربي.

ولم يكن النقد الثقافي بعيدا عن الاتجاهات النقدية الفكرية المعاصرة، التي اتسمت بالنشاط البحثي والتوسع في المفهوم وتفكيك اليقينيات وعدم تحديد المصطلح، وعليه، فإن النقد الثقافي "لم يتطور كمنهج في البحث أو يتبلور على شكل تيار ذي سمات واضحة، وإنما ظل نشاطا عائما تدخل تحت مظلته ألوان مختلفة من الملاحظات والأفكار والنظريات".[6]

وإذا كان هذا الوصف ينطبق على النقد الثقافي، فإن الدراسات الثقافية بوجه عام وكذا الدراسات النقدية التي ظهرت فيما بعد البنيوية جعلت النقد الأدبي يعرف رواجا كبيرا ليشمل مجالات كثيرة، حتى جاء الباحث الأمريكي "فنسنت ليتش" فقام بالدعوة إلى نقد جديد أسماه النقد الثقافي ليقوم هذا الأخير باكتشاف خبايا النص التي لم يصل إليها النقد الأدبي منذ تأسيسه، كمنهج نقدي إلى اليوم، باعتبار أن النقد التقليدي يتوقف عند الجماليات اللفظية الظاهرة من النص، وأن النقد الثقافي الذي جاء في مرحلة ما بعد البنيوية يقوم بوظيفة متميزة تتمثل في تتبع مختلف الأنساق الثقافية والأيديولوجية الظاهرة والمضمرة المبرمجة للنص.

ويجدر بنا أن نلاحظ في هذا المضمار أن الاتجاه الثقافي في النقد العربي المعاصر لم تتضح معالمه ويظهر بصفته منهجا نقديا مستقلا له أسسه ونظامه إلا في العقد الأخير من القرن العشرين، وكان ذلك على يد الناقد السعودي "عبد الله الغذامي"، من خلال مؤلفاته، خاصة كتابه الموسوم بـ "النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية". ويمكن أن نقول إن النقد الثقافي بمفهومه المعاصر يرتكز أساسا على أربعة روافد أساسية يستمد منها قوته ومنطلقاته، أولها المنهج النفسي، ويظهر ذلك جليا في الدراسة التي قام بها الغذامي في تحليل شخصية الشاعر العباسي "المتنبي"، وثانيها المنهج الاجتماعي خاصة عند تتبع الأنساق الثقافية التي أفرزتها الظروف الاجتماعية حتى صارت عرفا لا يمكن الانفكاك عنه، وثالثها السميوطيقا أو علم العلامات، باعتبار هذا الأخير اتجاها نقديا رافق الحداثة وما بعدها، ولا يدرس أي مكون

في النص إلا باعتباره علامة من العلامات، ورابعها المنهج الأيديولوجي الذي يكشف عن الأنساق السلطوية المضمرة المتحكمة في النص.

وقد أشار "آرثر آيزابرجر" في كتابه الموسوم بـ "النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية" إلى بعض هذه الروافد، أما عن علاقة النقد الثقافي بنظرية التحليل النفسي فإننا نجده يقول: "سأختبر في هذا الفصل –أي الفصل الخامس- عددا من المفاهيم الأساسية الموجودة في نظرية التحليل النفسي وهو أحد أهم المناهج المستخدمة لدى النقاد الثقافيين".[7]

ويتناول عدة قضايا تتعلق بالمنهج النفسي كالوعي واللاوعي، والأنا، والهوية، والنرجسية وما إلى ذلك ليثبت أن النقد الثقافي يعتمد بشكل واضح في طريقته الإجرائية على الدعائم التي قام عليها المنهج الفرويدي واليانجي في أسلوب التعامل مع النصوص.

وأما عن علاقة النقد الثقافي بالنظرية الاجتماعية فإن آرثر يقوم بعرض الثقافة بمفهومها العام، ويؤكد من خلالها أن النقد الثقافي يعود إلى الأنثروبولوجيا الثقافية في إرساء معالمه وتحقيق أهدافه، ذلك أن الأنثروبولوجيا تهتم بالقضايا الاجتماعية والثقافة الشعبية، سواء ارتبطت هذه الأخيرة بالحقيقة أم بالمتخيل، كالقصة والقصة الشعبية، والأسطورة.وقد تناول هذه الأجناس الأدبية العالم الأنثروبولوجي "كلود ليفي ستراوس"، وفي هذا الصدد يمكن القول: "إن علم الاجتماع مجال واسع يغطي عددا كبيرا من المجالات والحقول، وفي إطار هذا المجال –النقد الثقافي- نجد أن العلماء والكتاب لهم اهتمامات عديدة، ومختلفون في مواقفهم الفلسفية والإجراءات المنهجية التي يستخدمونها في تحليلاتهم، وسأصب تركيزي هنا على سمات الفكر الاجتماعي التي ترتبط بالدراسات الثقافية بصفة عامة، وبوسائل الإعلام والثقافة الشعبية والأمور المرتبطة بها بصفة خاصة".[8]

ويتناول آرثر في حديثه عن الرافد الاجتماعي للنقد الثقافي موضوع الثقافة، لأن الثقافة تشكل المحور الأساس الذي يدور حوله النقد الثقافي، ويقوم بإجراء مقارنة بين الثقافة الشعبية وثقافة الصفوة ويخلص أن الثقافتين تتداخلان بشكل كبير، ويمثل ذلك بالجدول الآتي[9]:

| الثقافة الشعبية | ثقافة الصفوة |
|---|---|
| - قصص عاطفية | - قصص كلاسيكية |
| - موسيقى الروك أندرول | - سيمفونيات وأوبرا |
| - الكوميديا الموسيقية | - أوبرا |
| - كوميديا الموقف مثل SeinfeldRoeanne | - كوميديا كلاسيكية (مثل الليلة الثانية عشر وفوليان) |

| | |
|---|---|
| - رسومات إباحية كوميدية | - اللوحات الزيتية |

أراد آرثر أن يبرهن من خلال ظاهرة الالتحام المذهل للثقافات مع بعضها البعض بأن الحواجز بين الثقافات قد كسرت، وأنه لا يمكن في الدراسات الثقافية المعاصرة أن نهتم بثقافة الصفوة على حساب الثقافة الشعبية، ولا أدل على ذلك من التوجه اللافت للكتاب والنقاد الأمريكيين إلى إحياء مختلف الثقافات الشعبية المهمشة التي أقصتها النمطية الثقافية في السابق "وسنجد في الوقت الراهن أن كلا من علماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا والعلماء السياسيين والفلاسفة وأساتذة اللغة الإنجليزية والعلوم الإنسانية والأفراد في الدراسات الأمريكية... حيث يدرس العلماء أية سمات للثقافة سواء أ كانت ثقافة عليا أم دنيا، شعبية أم غير شعبية، حيث وجدوا أن هذه الدراسات شيقة".(10)

ويعود الرافد الثالث للنقد الثقافي إلى علم نظرية العلامات، وقد أطلق على هذا العلم الفيلسوف الأمريكي س. بيرس Pears مصطلح «Semiotics» الذي عرب بالسميوطيقا، وأطلق عليها المفكر اللساني الشهير ف. ديسوسير Saussure مصطلح «Sémiologie»الذي عرب بالسيميولوجيا. وقد أشرنا في هذا البحث إلى أن النقد الثقافي يتسم بتوسع مجاله وتعدد مشاربه ومنابعه، لذلك فإنه يرتكز في إحدى ركائزه على نظرية علم العلامات، ويعد هذا الأخير علما واسعا فضفاضا لأنه ينظر إلى جميع الأشياء وكل مظاهر الحياة بوصفها علامة من العلامات، والعلامة هي الصورة الحاضرة التي يتوصل بها إلى الصورة الذهنية أي المفهوم التصوري القابع في الأذهان، ومن ثم فإن علم العلامات يمكن استخدامه "في نقد الفنون الرفيعة والأدب والأفلام السينمائية وفي الأعمال الإبداعية وكذلك في تفسير الفن المعماري والهندسة المعمارية وفي دراسة فنون الموضة والأزياء وفي تحليل تعبيرات الوجه الإنساني وفي تفسير إعلانات المجالات والإعلانات التجارية بالإذاعة والتلفزيون وفي الطب وفي مجالات أخرى عديدة".(11)

نخلص إلى القول بأن النقد الثقافي اتجاه نقدي ونشاط فكري استفاد من النظريات التي سبقته، وتزامن ظهوره مع مرحلة الحداثة وما بعدها، وقد ذكرنا في هذا الجزء من البحث أهم الروافد التي ارتكز عليها النقد الثقافي وجمعناها في أربعة عناصر: المنهج النفسي، والمنهج الاجتماعي، وعلم العلامات، والمنهج الايديولوجي. وهذه الروافد الأربعة دفعت النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة أن يفكر في نقد جديد يكون بديلا نهائيا وتحولا جذريا في الدراسات الأدبية والنقدية، فبدأ التحول من الأطروحات التي طرحها النقاد الأمريكيون، ثم تلقاها العالم العربي وحاول تبنيها والاشتغال عليها، تأثرا ونقدا وأقلمة وتجاوزا.

**3/ التحولات المعاصرة، من النظرية النقدية إلى النظرية الثقافية، بين القبول والرفض:**

شهدت الدراسات النقدية المعاصرة تحولات جذرية دفعت النقد الأدبي إلى مراجعة ذاكرته ومخزونه المعرفي ومنطلقاته التي تأسس عليها، على اعتبار أن العالم المعاصر عرف مع نهاية القرن العشرين تفكيك المركزيات في مختلف العلوم والمعارف، وهو أمر دفع التفكير النقدي إلى محاولة تحقيق قطيعة مع الماضي، وإرساء معالم جديدة لمنهج نقدي يتم من خلاله تحليل النصوص وفك شفراتها، ومن ثم كانت النظرة النقدية الجديدة التي نحن بصدد الحديث عنها وهي التحول من النظرية النقدية الجمالية إلى النظرة الثقافية وما تحيل إليه من أنساق مضمرة في النص الأدبي، ومن هذا المنطلق، انقسم النقاد العرب بين الرفض والقبول لهذا الطرح الجديد. وهذا يذكرنا بالصراع المعروف في التاريخ بين أنصار القديم وأنصار الجديد، بين القدماء والمحدثين. وهي ظاهرة عرفتها كل الآداب العالمية.

**أ- موقف الرافضين للطرح النقدي الجديد:**

حاول المفكرون والنقاد العرب أن يتجاوزوا مرحلة الركود التي شهدها الفكر العربي، فقدموا مشاريع نقدية أرادوا من خلالها مواكبة الثقافة العالمية التي تفد إليهم من القارتين، الأوروبية والأمريكية، وكان من بين هذه المشاريع مشروع محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن، وعلي حرب وهشام شرابي وعبد العزيز حمودة وغيرهم، والجدير بالذكر أن هذه المشاريع المقدمة تباينت في تصوراتها لموضوع الأصالة والحداثة وطرائق إحداث التجديد في الفكر العربي والمنهج النقدي.

وفي العقدين الأخيرين من القرن العشرين قام عبد الله الغذامي، بطرح توجه نقدي جديد من خلال مجموعة من مؤلفاته "ونختار منها (تشريح النص، 1987) و(الموقف من الحداثة، 1987) و(ثقافة الأسئلة، 1992) و(القصيدة والنص المضاد، 1994) و(رحلة إلى جمهورية النظرية، 1994) و(المشاكلة والاختلاف، 1994) و(المرأة واللغة، 1996) و(ثقافة الوهم، 1998) و(تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، 1999) وأخيرا (النقد الثقافي.قراءة في الأنساق الثقافية العربية، 2000)".[12]

وقد دعا الغذامي من خلال مؤلفاته إلى إحداث قطيعة مع الماضي، ونادى بموت النقد الأدبي وميلاد النقد الثقافي، فأحدث بذلك ثورة نقدية في العالم العربي، وظهرت مجموعة من النقاد الرافضين لهذا التوجه النقدي الجديد ونذكر منهم على سبيل المثال، عبد العزيز حمودة.

**- عبد العزيز حمودة:**

سعى عبد العزيز حمودة إلى تأسيس نظرية نقدية عربية من خلال كتبه الثلاثة: (المرايا المحدبة، 1998) و(المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، 2001) و(الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، 2003). حاول عبد العزيز حمودة من خلال الكتاب الأول أن يميط اللثام عن الغموض الذي يكتنف المصطلحات النقدية الوافدة من العالم الغربي، على اعتبار أن الغموض في المصطلح وأسلوب الكتابة يزيد من تهويل الأمر بالحداثة التي اعتبرها (حمودة) شيئا براقا زائدا عن الحقيقة، ومن ثم فإن الحداثة التي يدعيها النقاد العرب هي صورة مصغرة عن الحداثة الغربية مما أدى إلى تذبذبهم في عملية الترجمة للمصطلحات النقدية، وتأرجحهم بين الأنا والآخر في محاولة إحداث التوافق بين التمسك بالهوية ومواكبة الحداثة الغربية، ولذلك "فهم يتأرجحون بين ادعاء الأصالة وإنشاء حداثة عربية تختلف عن الحداثة الغربية في مقولاتها ومصطلحها النقدي، في الوقت الذي تكشف فيه كتاباتهم بصفة مستمرة عن تأثرهم الواضح، إن لم يكن نقلهم الصريح عن الحداثة بمفهومها الغربي، وهنا تكمن أزمة الحداثيين العرب في جوهرها".(13)

وعليه، فإن عبد العزيز حمودة تناول في كتابه الأول أزمة الحداثة العربية من ظهور المنهج البنيوي إلى الأفكار التي طرحها منظر التفكيك "جاك دريدا" كاشفا الوجه الخفي لهذه المناهج النقدية التي انبهر بها كثير من النقاد في العالم العربي. فكان انبهارهم انبطاحا واغترابا وتبعية.

ويأتي كتابه الثاني (المرايا المقعرة) باعتباره تكملة للبناء الذي بدأه بكتابه الأول أحدث ضجة في الساحة النقدية العربية، ونتج عن ذلك السؤال الجوهري الذي مفاده: إذا كان اللجوء إلى النقد الغربي ومناهجه التي رافقت الحداثة وما بعدها يعد انبهارا زائدا وافتتانا بالأفكار الغربية، فما هو السبيل الذي يجب على النقد العربي أن يسلكه لتكون له شخصيته المتميزة؟

يحاول عبد العزيز حمودة تقديم قراءة نقدية لثنائية التراث والحداثة، وأورد في هذا الصدد آراء مجموعة من النقاد العرب الذين تناولوا هذه الثنائية بالدراسة سواء الذين أعلنوا القطيعة مع التراث أم الذين تمسكوا به، وكذلك الذين سلكوا مسلكا وسطا فنادوا بعدم الانفصال عن الماضي مع ضرورة الاتصال بالفكر النقدي المعاصر والتشبع به، ويخلص إلى أن التراث العربي يمثل الذاكرة الغنية بالعلوم والمعارف، ويمكن للنقد العربي أن يحدث توافقا بين تراثه وبين التأسيس لحداثة نقدية معاصرة، وقد صرح أن مهمته في هذا الكتاب سوف تتركز "في إثبات أن النقد العربي والبلاغة العربية قدما نظرية نقدية ونظرية لغوية، ربما لا تكون

متكاملة في أي من المجالين، ولكنهما نظريتان لا تنقصهما "العلمية" التي كانت طعم الحداثيين العرب والذي التهموه في انبهار وحماس واضحين، وأنهما يقدمان مكونات نظرية لغوية ونقدية، كان من الممكن مع قليل من التزاوج مع فكر الآخر الحديث والمعاصر، أن يطورا إلى نظريتين كاملتين".(14)

وأما كتابه الثالث الذي وسمه بـ "الخروج من التيه"، فإنه تناول فيه الاتجاهات النقدية التي رافقت الحداثة الأدبية والنقدية وبين مواضع الاضطراب فيها، حتى وصلت في بعض الأحيان إلى حد التناقض، وقام حمودة بطرح بديل نقدي يخرج النقد العربي من التيه الذي عاش فيه قرابة نصف قرن من الزمن، وفي هذا الصدد يتساءل حمودة عن مصير النقد العربي أمام التحديات المعاصرة التي تواجهه "ماذا سيكون عليه موقف النقد العربي الذي بدأ أخيرا فقط في اكتشاف النقد الثقافي وتبنيه تماما كما تبنينا كل الاتجاهات النقدية الغربية من قبل؟

لم تعد الأزمة إذن، مقصورة على تبعيتنا للفكر الغربي ونقل مذاهبه النقدية،... كما هي الحال اليوم ونحن نحتفي بالنقد الثقافي في الوقت الذي دخل فيه ذلك الاتجاه مرحلة الاحتضار الأخيرة".(15)

وبناء على هذه المواقف النقدية، فإن عبد العزيز حمودة يعد من النقاد العرب الذين وقفوا موقفا مناهضا للنقد الثقافي بمفهومه المعاصر، سواء في الساحة الغربية أم في العالم العربي، كما طرحه الغذامي تنظيرا وممارسة ورؤية، وحاول من خلال ثلاثيته طرح نظرية نقدية عربية تمثل الهوية الواقية للفكر العربي والدراسات العربية التي جمعت بين ثنائية الأصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة.

**ـ حاتم الصكر:**

قام "حاتم الصكر" بتحليل تجربة الغذامي وأبدى آراءه فيها، وخرج بنتيجة مفادها: أن محاولات "الغذامي" في النقد الثقافي حولت القراءة الثقافية إلى محاكمات أخلاقية بالمعنى الفلسفي، وتراجعت بالنقد إلى النبش في السير والأخلاق والاستدلال بالنصوص على ضعة المتنبي ونرجسية أدونيس، وذلك مما يعيد النقد للعمل داخل الحياة الخاصة والتاريخ والوقائع المشكوك بصحتها.

ومن هنا فإن حاتم الصكر يعيب على تجربة الغذامي الجديدة في النقد العربي، حيث يرى أنه لا يمكن بحال أن نترك مراكز الجمال في النص الأدبي ثم نذهب إلى وضع فرضيات

يحتملها النص بشكل تعسفي من أجل الوصول إلى الكشف عن الأنساق المضمرة في النص الأدبي.

**ب- موقف أنصار النقد الثقافي:**

الجدل قائم في الساحة النقدية العربية، منذ منتصف القرن العشرين، حول المنهج الذي يسعف الفكر العربي في الخروج من أزمته الفكرية والثقافية، ونتج عن هذا الجدل ظهور نقاد حداثيين تأثروا بالمناهج الغربية المعاصرة، فنادوا بقطيعة مع الماضي والاشتغال بالمنهج النقدي الجديد، وكان لزاما على أنصار هذا الاتجاه النقدي أن يؤسسوا لنظرتهم النقدية، وحري بنا في هذا المقام أن نذكر بعضا من الذين تحمسوا لهذا التوجه الجديد:

**- عبد الله الغذامي:**

تأثر عبد الله الغذامي بالنقد الأمريكي الذي حول تفكيره من النص الشعري والنثر الفني إلى الاهتمام بكل ما تشمله الثقافة بشقيها النخبوي والشعبي، وكان لهذا التحول الابستيمولوجي في الممارسة النقدية أثر واضح في الدعوة التي أطلقها الغذامي، حيث "دعا إلى تغيير الوظيفة التقليدية للنقد الأدبي، واقترح الوظيفة الثقافية بديلا عنها، وبذلك يكون قد اقترح "النقد الثقافي" بديلا عن "النقد الأدبي" الذي تستأثر بتحليلاته الخصائص الجمالية للنصوص الأدبية، ومعلوم بأن الثقافة الغربية بدأت تشتغل في هذا الحقل المعرفي منذ منتصف القرن العشرين".[16]

بدأ الغذامي في مشروعه النقدي بكتابه (الخطيئة والتكفير، 1985) الذي جمع فيه بين الوضوح والغموض، وبين المألوف والسائد في النص النقدي العربي من جهة، و المناهج الغربية كالسيميائية والتفكيك من جهة أخرى.أصدر بعدها مجموعة من المؤلفات يكمل كل منها ما سبقه، حتى أصدر كتابه النقد الثقافي سنة 2000، فأحدث ضجة كبيرة في الأوساط النقدية العربية.

دعا الغذامي إلى نقل النقد الأدبي من الوظيفة الأدبية إلى الوظيفة الثقافية، ولن يتحقق ذلك حسب رأيه إلا بجملة من التغييرات على مستوى التنظير ومستوى التطبيق:

أ- تخليص مصطلح (أدبي) و(أدبية) من القيد المؤسساتي لإعطائه مفهوما جديدا، أي إفراغه من المحتوى التقليدي ثم شحنه بشحنات ثقافية تتعدى المستوى الجمالي المعهود، ومن ثم فـ "إن مصطلح أدبي وأدبية لابد أن يتحررا من قيد التصور الرسمي المؤسساتي، بحيث يعاد النظر في أسئلة الجمالي وشروطه وأنواع الخطابات التي تمثله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى

لابد من الاتجاه إلى كشف عيوب الجمالي والإفصاح عما هو قبحي في الخطاب"[17]، وهذه الخاصية هي الركيزة التي تأسست عليها الدراسات الثقافية في بدايات ظهورها في الولايات المتحدة الأمريكية.

ب- أطلق الغذامي عددا من العمليات الإجرائية لتحرير المصطلح النقدي من القيد المؤسساتي السلطوي، ونقله من المفهوم الأدبي إلى المفهوم الثقافي، وتتمثل فيما يلي[18]:

- نقلة وتحول في المصطلح النقدي ذاته.

- نقلة في المفهوم (النسق).

- نقلة في الوظيفة.

- نقلة في التطبيق والممارسات النقدية.

ج- اقترح الغذامي إضافة وظيفة سابعة إلى وظائف اللغة وفقا للنموذج الذي طرحه "رومان جاكوبسون"، هذه الوظيفة هي الوظيفة النسقية، ويكون المخطط المقترح كما يلي[19]:

الوظيفة المرجعية

الوظيفة الشعرية

الوظيفة التعبيرية ← الوظيفة الإفهامية

الوظيفة التنبيهية

الوظيفة الميتا لغوية

الوظيفة النسقية

وعليه، فإن وظائف اللغة التواصلية هي سبع بعد إضافة العنصر النسقي، وبذلك تكون التغييرات التي أحدثها الغذامي شاملة تمس النص من جميع جوانبه باعتباره منظومة شاملة تقوم على التماسك والانسجام.

ويعترف الغذامي بأن مشروعه الثقافي هو مشروع يستمد قوته من المناهج النقدية الغربية المعاصرة التي رافقت الحداثة وما بعد الحداثة، كما يعترف أيضا أن النقد الثقافي الذي دعا إليه يتصف بالشمولية والانفتاح كما هو الحال لدى الدارسين الذين كتبوا مقالات فيما بعد الحداثة "وقد جاءت هذه المقالات استجابة لأسئلة تتوارد علي منذ أن صار مشروعي الثقافي مرتبطا بمنهجية نقدية واضحة المعالم، وتقوم هذه المنهجية على (النقد الألسني) أو

(النصوصية) معتمدا بذلك على ما يعرف بنقد ما بعد البنيوية، وهو –عندي- نقد يأخذ من البنيوية ومن السيميولوجية ومن التشريحية منظومة من المفهومات النظرية والإجرائية تدخل كلها تحت مظلة الوعي اللغوي بشروط النص وتجلياته التكوينية والدلالية".[20]

وعلى هذا الأساس فإن الناقد عبد الله الغذامي يعد من أنصار الحداثة النقدية، ويسعى من خلالها إلى تأسيس نظرية نقدية تنقل الدرس النقدي من البلاغة الكلاسيكية والجمال الشكلي إلى الوظيفة الثقافية والاشتغال داخل النسق المضمر في طيات النصوص الشعرية والنثرية.

**- عز الدين المناصرة ونظرته التكاملية:**

ويأتي في هذا الصدد الاسم العربي اللامع (عز الدين المناصرة) الذي اتصف بالدينامية والتجاوب مع الاتجاهات الحداثية في العالم العربي، إنه اشتغل في حقل الأدب المقارن طيلة عقود زمنية خلال القرن العشرين، وقد أعد رسالة دكتوراه في النقد الحديث والأدب المقارن عام 1981.

ويأتي كتابه "علم التناص المقارن" في طليعة كتبه النقدية، ذلك أن هذا الكتاب يطرح فكرة المقارنية في الأدب طرحا جديدا جعلها تتقاطع مع الدرس اللساني الحديث، وقد حاول فيه عز الدين المناصرة أن ينقل الأدب المقارن من مقابلة النص بنص آخر مع اختلاف اللغة بينهما إلى إحداث تفاعل بين النصوص، ومن ثم فإن الأدب المقارن قبل هذه الدراسة يقارن النصوص بناء على سياقاتها الخارجية، وحاول المناصرة أن ينقل المقارنة إلى النسق الداخلي للنص، ويبدو هذا من عنوان الكتاب "علم التناص المقارن" الذي يوحي بتقاطع النصوص والتقاء الثقافات، وبذلك ينتقل الدرس الأدبي من المحلية والقومية إلى الشمولية والعالمية، ومن المركزية الواحدة إلى كسر الحواجز بين الأجناس الأدبية.

ولقد أخذ عز الدين المناصرة هذه النظرية الحديثة من النظريات اللسانية المعاصرة التي تجرد النص من جميع السياقات الخارجية، بل وتجرده حتى من المؤلف الذي كتبه (مقولة موت المؤلف) وتجعل النص هو البؤرة التي تحتوي على دلالات مكثفة، وتتقاطع دلالات النص مع نصوص أخرى لتشكل شبكة لا متناهية من النصوص على حد تعبير الناقدة "جوليا كريستيفا".

ويعترف المناصرة في هذا الكتاب أنه استوحى هذا العلم من علم الحاسوب الذي يتصف بالتوسع وليونة التفاعل وكسر الحواجز الجغرافية والقومية، يقول في مقدمة الكتاب "وفي هذا الكتاب طرحت البديل النقدي في عدة مواقع من الكتاب، أعني: (النقد التفاعلي العنكبوتي) الذي استوحيناه من علم الحاسوب، فهو يمتلك خاصيات التشعيب العنكبوتي، وليونة التفاعل...في النصوص"[21]

ويأتي هذا الكتاب مقسما إلى أحد عشر فصلا، يتقدمها موضوع الأدبي والثقافي، ويبدوا من هذه الثنائية (الأدبي = الثقافي ) أن المناصرة تأثر بالاتجاه النقدي الثقافي الذي ظهر في العالم العربي مطلع القرن الواحد والعشرين، ومن ثم فإنه يقيم مقارنة بين دعوى النقد الأدبي الذي يقوم على التحليل الجمالي، وبين دعوى النقد الثقافي الذي يقوم على تحليل الأنساق المضمرة خلف ما هو جمالي، ويطرح المناصرة عدة تساؤلات مقارنية، ويخلص من هذه التساؤلات إلى دعوى تحقيق التكامل، ذلك لـ "أن تعدد الهويات والآليات لا تعني الفصل، لأن النص عبارة عن حياة متحركة، لهذا أميل إلى البحث عن مفاهيم التكامل، لا التناقض مع الأخذ بخصوصية الهويات".[22]

ويركز عز الدين المناصرة على موضوع النسق ويستدل على ذلك بما ذهب إليه الشكلانيون الروس ونظرية التواصل لدى جاكوبسون، ويبين أن هذا الأخير أحدث نقلة نوعية في الدرس اللساني حينما أطلق مقولته "إن موضوع العلم الأدبي ليس الأدب، وإنما الأدبية".[23]

ثم يعطي تحليلا لمفاهيم السرد الحكائي، كما جاء عند الشكلانيين، ومن ثم فإن المناصرة سلك في دراسته هذه منهج المدرسة الحديثة التي انبثقت من المفاهيم اللسانية الغربية.

**ثانيا: مسارات النقد الثقافي من النسق المضمر إلى جماليات التحليل الثقافي**

إن الدرس النقدي يسير بتجاوب مع الاكتشافات المتسارعة في العقدين الأخيرين من هذا القرن، خاصة وأن الوسائل التواصلية الحديثة نقلت النص الأدبي إلى عالم الرقمنة، ثم إلى الصورة الرقمية ثم إلى العالم الافتراضي، وهذه التحولات المتسارعة دفعت النقاد إلى البحث في مجال النقد ونقد النقد وظهرت دراسات رائدة في هذا المجال، ولم يكن النقد الثقافي بمعزل عن هذه التحولات المذهلة والحاسمة. لذلك حضي النقد بدراسات جادة للوقوف على فتوحاته ومآزقه ووعوده، وهذا ما جعل أغلب النقاد العرب لا يتصورون إمكانية إزاحة النقد

الثقافي للنقد الأدبي بمفهومه الواسع،ذلك أن ما هو أدبي وما هو ثقافي يختلفان اختلافا جوهريا في الأسس والمنطلقات التي ينطلق كل نوع منها، وعلى هذا الاعتبار فإن نقادا كـ يوسف عليمات وهلال الجهاد وعبد الفتاح أحمد يوسف وعبد القادر الرباعي راحوا يبحثون عن الجماليات في الخطاب الثقافي، وأكدوا أن النص الأدبي لا يقف عند النسق المضمر (القبحيات) على حد تعبير عبد الله الغذامي، وإنما يتعدى ذلك إلى الخطاب الجمالي الذي يعد هو الأصل في النصوص الشعرية والنثرية سواء منها التقليدية أم المعاصرة.

## 1- العلاقة الجدلية بين النص الأدبي والنص الثقافي:

شهد النصف الثاني من القرن العشرين تحولات سياسية واقتصادية وثقافية هامة، حيث أخذت الثقافة تحضى باهتمام خاص من المشتغلين بالأدب والنقد والثقافة، مما أدى إلى مزاحمة النص الأدبي وصارت الثقافة مهيمنة على كل الفضاءات، وحينها "أصبحت دراسة الثقافة ونقد الثقافة، على نحو متزايد، جزءا مركزيا من الحياة السياسية والفكرية، وفي السنوات الأخيرة أصبح يطلق على هذه الظاهرة "الانقلاب الثقافي في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية".[24]

ويؤكد عبد القادر الرباعي هذه الحقيقة، بأن الدراسات الثقافية لها أصولها التي قامت بها وعليها، والدراسات الأدبية والنقدية قد تجذرت في النص الأدبي عبر التاريخ، ولا يمكن للمنهج المقترح، أي "النقد الثقافي" أن يلغي ما تجذر في الفكر النقدي منذ عصور "ذلك أن الدراسات الثقافية مختلفة عن الدراسات الأدبية حتى في حال دراسة كل منهما للشعر، فالأولى عبارة عن دراسة لمفاهيم وأنشطة ثقافية قد تشكل أرضية أولية للشعر، وحين تكون كذلك فإن الشاعر بتكوينه الخاص يركبها داخليا، ثم يعمد بعد صهرها وإعادة إنتاجها فنا إنسانيا جميلا يغدو بالتالي قابلا للدراسات الأدبية في إطار مفهومها الفني الإنساني".[25]

وتكمن الفروق بين التحليل الأدبي والتحليل الثقافي أن النقد الأدبي يقوم على الاختيار للمعايير النصية المضبوطة للوصول إلى الأسلوب البليغ الذي يؤثر في السامع ويوصل إليه المعنى المراد، هذا عن المبدع، أما الناقد فإنه يتبع الخطوات المألوفة عند النقاد ليقف على مواضع الجمال في النص، أو يقوم بإعادة إنتاجه مرة أخرى تكون أحسن نسيجا وأدق تعبيرا مع المحافظة على الجوانب الفنية فيه، أما النقد الثقافي فإنه يضطلع بتفكيك المركزيات وإزاحة الدراسة النخبوية مع السعي لإبراز الثقافة الشعبية، إنه يعيد إحياء الثقافة (الدارجة) كما هو الحال في شبكة التواصل الاجتماعي. ولهذه الأسباب، فإن النقد الثقافي لم يتمكن من وضع استراتيجية ومعالم واضحة في المنطلقات والأهداف لكي يتخذ الوسيلة المناسبة لبلوغ الغاية

المرجوة.وبناء على هذا التصور الذي قدمناه، فإننا ندرك التباين بين التحليل الأدبي والنقد الثقافي "ولما كانت الدراسات الثقافية شكلا مفارقا للدراسات الأدبية، فقد طبقت التحليل الأدبي على المواد الثقافية الأخرى... ومع ذلك ليس ثمة حظر على القراءات النصية الدقيقة في الدراسات الثقافية إلا أنها غير مطلوبة".(26)

وعموما، فإن النقد الأدبي قد عرف تحولات جذرية خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث أخذت المعيارية في التحليل الأدبي تنحصر، لتطغى على الإنتاج الأدبي مظاهر التمرد والانفلات من القيود، كالوزن والقافية والقصيدة العمودية.لذلك انتقل الاهتمام إلى القصيدة الحرة ثم إلى قصيدة النثر، ومع ظهور وسائل الإعلام الحديثة، تحولت الدراسات النقدية إلى الممارسات الثقافية، والسؤال الذي نطرحه في هذا الصدد، هل بإمكان الممارسة الثقافية أن تلغي النقد الأدبي مع ما في جوهرهما من تباين واختلاف؟ والإجابة على هذه الحقيقة نقول:إن لكل دراسة مجالها وضوابطها، ويمكن لكل واحدة منها أن تتوسل بالأخرى أو تستأنس بها، وذلك لأن العمل في النقد الأدبي يقوم على دراسة الخصائص النصية من حيث اللفظ والمعنى والمستويات المتبعة في العمل الإجرائي للوقوف على أهم الظواهر النصية في النص الأدبي، وأن العمل في الدراسات الثقافية يستند إلى الوقوف على صراع الخطابات والأفق التداولي والهوية والتمثيل والفاعلية وكل ما له علاقة بالسلطة الثقافية في عمومها.

## 2- تعالقات العنصر الجمالي في النقد الثقافي:

إن البحث عن الجمال أمر فطري جبلت عليه النفس البشرية، فهي تشعر به بفضل حاسة السمع أو البصر أو بهما جميعا، وقد عرف الإنسان الجمال في الكلام المسموع والموزون منذ نشأته، ولكن ماذا نقصد بالجمال في النص الأدبي أو الثقافي؟ للإجابة على هذا السؤال نجد هلال الجهاد يقدم توضيحا لذلك يحاول فيه تحديد منهج علمي لدراسة مواطن الجمال في النص العربي، وهذه المحاولة ليست بالأمر السهل، ذلك لأن "هناك مفاهيم مختلفة للجمال والجميل بقدر ما يوجد من فلاسفة ومناهج في ما يعرف بعلم الجمال وفلسفة الفن"(27).ولما كان الجمال يعتمد أساسا على الذوق وليست له معايير تحدده خاصة في الدراسات الأدبية والثقافية المعاصرة فإن الآراء ستختلف حتما في دراسة الجمال في النصوص بأنواعها سواء ما تعلق بالأدب أم الثقافة.

ويؤكد مجموعة من الباحثين الأمريكيين أن العلوم الإنسانية التي تبحث عن الجمال وتتكئ على علوم البلاغة قد انحسرت مع مطلع القرن الواحد والعشرين، ذلك أن العلوم الإنسانية تتكئ على العودة إلى الماضي أكثر من تطلعها للمستقبل، و"على الرغم من كل

تقدميتها، كانت العلوم الإنسانية دوما بشكل واع على الأقل تتجه نحو الماضي أكثر من المستقبل، وعندما جرى توجيهها نحو ما هو آت، كانت مدفوعة بشكل رئيس بفلسفة إنسانية تجريدية".[28]

ويؤكد هذه الرؤية النقدية ما ذهب إليه "تيري إيجلتون" من أن الدراسات الأدبية ليست لها مرجعية محددة المعالم في وحدة الموضوع أو في وحدة المنهج، وهو يريد بذلك الطرح أن ينتصر للدراسات الثقافية التي أطلق عليها مصطلح "النقد السياسي، فـ"من الناحية المنهجية فإن النقد الأدبي هو لا –موضوع، وإذا كانت نظرية الأدب نوعا من "الميتا نقد" «Metacriticism»، تأملا نقديا حول النقد، فينتج من ذلك إذن أنها هي الأخرى لا –موضوع "Non-Subject".[29]

هذا التصور الذي نشأ في أفكار سايمون ديورنغ وتيري إيجلتون هو نفسه الذي تأثر به الناقد عبد الله الغذامي الذي أيد الفكرة التي نشأت في الدراسات الثقافية الأمريكية، وحاول أن يجعلها نظرية في النقد العربي وبشر بميلاد النقد الثقافي على أنقاض النقد الأدبي.

ومهما يكن من أمر فإن الجمال لصيق بالنصوص، ويستوي في ذلك النص الأدبي والنص الثقافي، على الرغم من اختلافهما في الأسس والمنهج الذي يتخذه كل نص من هذين النصين، وبناء على ذلك، فإن النقد الثقافي الذي أعلنه الغذامي وأقام دعائمه على دراسة الأنساق الثقافية المضمرة، وجعله يفتش عن القبحيات المخبوءة في النص الأدبي، وصرح بأنه بات من الضروري أنه كما تكون لنا نظرية في الجماليات لابد أن تكون لنا نظرية في القبحيات، استطاع أن يتبوأ مع مرور الوقت مكانة مرموقة في النسق الثقافي العربي المعاصر.

وهذه الدعوة المعلنة في النقد الثقافي جعلت مجموعة من النقاد العرب يبحثون في النصوص الأدبية المبثوثة في الشعر العربي القديم والحديث ليميطوا اللثام عن أسرار الجماليات ومكبوتاتها ومفارقاتها في التراث العربي، مستعينين في ذلك بالمناهج النقدية المعاصرة التي رافقت الحداثة وما بعدها.

### 3- الممارسة النقدية في جماليات النقد الثقافي:

ظهرت أسماء لامعة في الساحة النقدية العربية، خاصة من الأردن، ونذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر:

- عبد القادر الرباعي في كتابيه: "تحولات النقد الثقافي" و"جماليات الخطاب في النقد الثقافي"؛
- يوسف عليمات في كتابه: "جماليات التحليل الثقافي في الشعر الجاهلي"؛

- أحمد المرازيق في كتابه: "جماليات النقد الثقافي في الشعر الأندلسي"؛

- هيثم العزام في كتابه: "النقد الثقافي" قراءة ثانية، وهي قراءة جمالية؛[30]

- عبد الفتاح أحمد يوسف في كتابه: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة؛

- ثم عبد الرزاق المصباحي في كتابه: النقد الثقافي، من النسق الثقافي إلى الرؤيا الثقافية.

هذه المؤلفات كلها جاءت كرد فعل على الدعوى التي أطلقها الغذامي بأن نظرية الكشف على القبحيات هي التي ستفرض نفسها مستقبلا على النقد الأدبي، فجاءت محاولة عبد القادر الرباعي في كتابه، "جماليات الخطاب في النقد الثقافي"، حيث تتبع فيها النصوص التي استشهد بها الغذامي في القبحيات ليثبت أن هذه النصوص تحمل في طياتها جمال الخطاب، وعنون لهذا العنصر بـ: الغذامي ناقدا جماليا، ثم يستشهد لذلك بنصوص من كتابي الغذامي "الخطيئة والتكفير" و"المشاكلة والاختلاف".

وقد سار على هذا النهج بقية النقاد المذكورين سلفا، لأنهم ـ في معظمهم ـ درسوا على يد أستاذهم عبد القادر الرباعي، وجاءت هذه الدراسات المقدمة في هذا المضمار مرتكزة على دراسة الشعر الجاهلي وبوجه خاص "شعر الصعاليك"، باعتباره مادة غنية بالمفارقات الضدية والصور التنافرية وغير ذلك من المحطات التي تستحق الاهتمام بها والاشتغال عليها.

وخلاصة القول في هذا العنصر من البحث، إن الطرح الجديد لنظرية النقد الثقافي في العالم العربي غذت مجهودات كبيرة لمجموعة من النقاد في المشرق العربي ومغربه، وجاءت هذه المجهودات كردة فعل للحفاظ على الموروث النقدي وللكشف عن الجماليات التي يزخر بها النص الأدبي القديم والحديث والمعاصر، حتى ما تعلق منها بالدراسات الثقافية والنقد الثقافي.

**خاتمــة:**

بعد أن قام الباحث في هذه الدراسة بعرض مسارات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي بالمفهوم العربي خلص إلى مجموعة من النتائج يحسن إجمالها فيما يلي:

- إن الدراسات الثقافية تعود جذورها إلى الولايات المتحدة الأمريكية وقد حظيت باهتمام واسع منذ منتصف القرن العشرين.

- توصل بعض النقاد الغربيين إلى أن العلوم الإنسانية تبحث في الماضي في أغلب دراساتها، وهو ما جعلها تنحصر في العقدين الأخيرين من القرن العشرين مقارنة بالدراسات الثقافية المهوسة بالتطلع نحو التغيير والمستقبليات.

- لقد كان لوسائل التواصل الحديثة الدور الأساس في دفع العمل النقدي إلى الاهتمام بالثقافة الشعبية، باعتبارها تمثل القسم الأكبر والمهيمن على جل الأنساق المعرفية ، مقارنة بالثقافة النخبوية التي تنحصر في المؤسسات الأكاديمية.

- يعود فضل السبق في مجال الدراسات الثقافية في العالم العربي إلى الناقد السعودي عبد الله الغذامي، الذي أحدث تغيرات جذرية في النقد العربي ونادى بالنقد الثقافي وبشر به على رأس الألفية الثالثة، باعتباره بديلا عن النقد الأدبي.

- تفاعلت الأقلام العربية مع هذا النقد الجديد، سواء أكان هذا التفاعل إيجابا أم سلبا، وظهرت كتابات نقدية عربية كثيرة، وعقدت المؤسسات الأكاديمية والجامعات ندوات ومؤتمرات في هذا الشأن.

- إن هذا المخاض النقدي في العقدين الأخيرين تولد عنه ظهور دراسات نقدية ورسائل جامعية تعيد مراجعة القراءة في نظرية النقد الثقافي، إيمانا من كتابها بتجاوز نظرية الكشف عن القبحيات إلى جعل النقد الثقافي نظرية تكشف أيضا عن جماليات النصوص.

- وبناء على هذا التصور فإن النقد الثقافي في العالم العربي يمكن اعتباره اتجاها نقديا يخدم النقد الأدبي بوجه عام.

- إن النص لا يخلو من وجود مواضع الجمال فيه، سواء أكان نصا أدبيا أم نصا ثقافيا، ولذلك كانت الدراسات النقدية العربية الأخيرة مهتمة بالعنصر الجمالي في الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، مثل ما فعل عبد القادر الرباعي ويوسف عليمات وعبد الفتاح أحمد يوسف وغيرهم.

- وأخيرا، فقد كان للعولمة السياسية والاقتصادية أثرها الكبير في الإنتاج الأدبي والثقافي، بوصفها –أداة امبريالية حديثة- فرضت هيمنة القطب الأحادي الذي تمثله الولايات المتحدة الأمريكية على الشعوب النامية، مما دفع هذه الشعوب إلى التعامل بطرق شتى مع التحديات اللغوية والثقافية الجديدة وإلى تبني سياسات لغوية واعية تضمن الأمن اللغوي وتحصن الانتماء الثقافي مع الانفتاح على التحديات الكبرى التي تفرضها هيمنة اللغات العالمية، وخاصة اللغة الإنجليزية.

## هوامش البحث:

(1) عبد القادر الرباعي،جماليات الخطاب في النقد الثقافي، دار جرير للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2015، ص18.

(2)ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء/ بيروت، 2002، ص139-140.

(3)يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، ط1، المحمدية، الجزائر، 2007، ص179.

(4)ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص145.

(5)ريشارد وولين، مقولات النقد الثقافي، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2016، ص158.

(6)ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص306.

(7)آرثرأيزابرجر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2003، ص157.

(8)آرثرأيزابرجر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية ، ص191.

(9)المرجع نفسه، ص194.

(10)المرجع نفسه، ص195.

(11)المرجع نفسه، ص123.

(12) عبد الله إبراهيم: "النقد الثقافي، مطارحات في النظرية والمنهج والتطبيق"، عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2003، ص38.

(13) عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص27-28.

(14) عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، الكويت، 2001، ص186.

(15) عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة، الكويت، 2003، ص274.

(16) عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، دار الأمان، ط1، الرباط، 2010، ص97.

(17) عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2005، ص59.

(18)المرجع نفسه، ص62.

(19)المرجع نفسه، ص66.

(20) عبد الله الغذامي، ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية، دار سعاد الصباح، ط2، الكويت، 1993، ص9-10.

(21)عز الدين المناصرة، علم التناص المقارن، نحو منهج عنكبوتي تكاملي، دار مجد لاوي للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2006، ص06.

(22)عز الدين المناصرة، علم التناص المقارن، نحو منهج عنكبوتي تكاملي، ص12.

(23)عز الدين المناصرة، علم التناص المقارن، نحو منهج عنكبوتي تكاملي، ص26.

(24) مايكل دينينغ، الثقافة في عصر العوالم الثلاثة، ترجمة أسامة الغزولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013، ص16.

(25) عبد القادر الرباعي، جماليات الخطاب في النقد الثقافي، ص145.

(26) جوناثان كالر، النظرية الأدبية، ترجمة رشاد عبد القادر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004، ص63.

(27)هلال الجهاد، جماليات الشعر العربي، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2015، ص49.

(28) سايمون ديورنغ، الدراسات الثقافية، مقدمة نقدية، ترجمة ممدوح يوسف عمران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2015، ص 119.

(29) تيري إيجلتون، مقدمة في نظرية الأدب، ترجمة أحمد حسان، الهيئة العامة لعصور الثقافة، القاهرة، 1991، ص234-235.

(30) عبد القادر الرباعي، جماليات الخطاب في النقد الثقافي، ص80.